بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 14 يونيو 2017

فرنسيس بيكون
وإعادة بناء المعرفة الميتافيزيقية

رسول محمَّد رسول
باحث عراقي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

قبل أن يبدأ الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1724م- 1804م)، في النصف الثاني من القرن الثامن بتفكيك بنية العقل المحض؛ الذي تتولَّد عنه الأفكار الميتافيزيقية، كان الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون (1561م- 1626م)، قد باشر، ومنذ بداية القرن السابع عشر، بتشريح العقل الإنسي، وتشخيص أوهامه المعطِّلة لانطلاقته العلمية في الوصول إلى حقيقة الموجودات والأشياء، وتحديدًا؛ الوصول إلى كنه الطبيعة الحقيقي على نحو مباشر، وهي مهمة تطلَّبت من هذا الفيلسوف وضع (المعرفة الميتافيزيقية) على محك القراءة، والتدقيق، والتفكيك، والنَّقد، وإعادة البناء المندفع بأسس جديدة، قوامها؛ استبدال منطق المطابقة البرهاني؛ أي منطق القياس القديم، بمنطق الاختلاف الاستقرائي الجديد، وما ترتَّب على ذلك من تغيير جذري لوجهة النَّظر الفلسفية القديمة، بوجهة أخرى مغايرة، قاعدتها المنهجية؛ الانتقال من تجريد الطبيعة (Abstracting)، على نحو ميتافيزيقي مُفارق، إلى تشريحها (Dissecting)، حسب مصطلح بيكون نفسه، بشكل محايث بغية استخلاص صورتها الحقيقية، ما يستدعي النزول الحر إلى العالم الواقعي المنظور، بدلًا من المضي قدمًا إلى ما بعده، أو ما وراءه، من خلال إزالة الأوهام الثاوية في الذهن الإنسي، وبالتالي؛ العقل الإنسي، تلك التي يتسرَّب من خلالها، ذلك النزوع الحميم إلى ما هو خارج عالم التجربة الإنسية، بمعونة من المخيال الإنسي المنساب بلا رابط، يحكمه، وبمعونة أيضًا من الفكر الخرافي، الذي يخلق أفكارًا لا أساس لها على أرض الواقع، والتي تحجب الطبيعة الحقيقية للعقل الإنسي.

ومع ذلك، ما كانت مراجعات بيكون لـ (الفكر الميتافيزيقي) لتقصي، هذا الأخير، عن منظومة العلوم لديه، وهذا ما بدا واضحًا في عام 1605م، وتحديدًا، في مقالته (تقدُّم العلم)؛ التي نشرت باللغة الإنجليزية في ذلك العام، والذي بدا فيها بيكون، غير مغادر كليًا أهمية المعرفة الميتافيزيقية، بدليل أنه جعل هذه المعرفة غصنًا من غصون شجرة العلوم الخاصَّة به، لكنّه، وبعد نحو عشرين عامًا، وتحديدًا في عام 1626م، وفي كتابه (الأورجانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة)، أخذ، من جهة، ينصرف إلى تفكيك ونقد المعرفة الميتافيزيقية المفارقة، لما فيها من تعطيل لمَهمة العقل والذهن والفهم الإنسي، عندما يبتغي معرفة حقيقة الأشياء، ومن جهة أخرى؛ ينصرف إلى الكشف عن كيفية بناء معرفة ميتافيزيقية، تعتمد على أسس علمية استقرائية، تنسجم مع التفكير العلمي الذي لا يؤمن بما هو مُفارق، وبما لا يمكن إخضاعه إلى الاستقراء.

تتابع هذه الدراسة تطوُّرات موقف بيكون الفلسفي من الميتافيزيقا في هذين المؤلَّفين؛ وإذا كان بيكون، في الأول منهما، بدا يؤسس لضرورة الميتافيزيقا؛ فإنه، في الثاني، تمتَّع بوفرة نقدية واضحة على معاينة المعرفة الميتافيزيقية، سنتناول، هنا، ضرورة الميتافيزيقا في خطاب بيكون الفلسفي، وإشكالية أزمة العقل الإنسي، وأوهام العقل الإنسي، وكذلك، نقد التأمُّل الميتافيزيقي، وحالة الميتافيزيقا البديلة التي اقترحها على عصره.

***

في بداية مشروعه الفلسفي، كان فرنسيس بيكون حريصًا على وضع المعرفة الميتافيزيقية، كواحدة من ضرورات التفكير الإنسي، وبدا كتابه (تقدُّم العلم) من النُّصوص الفلسفية الباكرة التي اهتمت بذلك؛ حيث قدَّم شجرة للعلوم، أو تصنيفًا للعلوم، اتسم بالدقة والوضوح، كانت (الميتافيزيقا)[1] فيه؛ جزءًا حيويًّا، يتسم بالضرورة في نسيج العلوم التي يقترحها، وفيها توجد (الحكمة الطبيعية Natural Prudence)؛ التي تضمُّ الحكمة الاختبارية، والحكمة الفلسفية، والحكمة السحرية، وكذلك، يوجد (العلم الطبيعي)؛ الذي يضم الفيزيقا والميتافيزيقا معًا، وتضم الميتافيزيقا الرياضيات[2].

ضرورة الميتافيزيقا:

وفي ضوء ذلك؛ جعل بيكون من (الفلسفة الأولى)، أو (علم البديهيات)، الجذع المشترك بين العلوم الثلاثة؛ علم الله، وعلم الطبيعة، وعلم الإنسان، بينما جعل (علم اللاهوت) أول العلوم الفلسفية، ويليه (علم الطبيعة)؛ الذي ينقسم بدوره إلى؛ (الميتافيزيقا): وهو علم العلل الصورية والعلل الغائية، وإلى (فيزيقا خاصَّة) أو علم العلل الفاعلية والعلل الهيولانية[3].

تدرس الفيزيقا (Physics) علل الطبيعة المادية والفعلية، كما تبدو لنا عبر الحواس، بينما تدرس الميتافيزيقا (Metaphysics)، البُعد الصوري للطبيعة، وعللها النهائية والكلية، عبر طاقات العقل التجريدية[4] التي يتمتَّع بها الإنسان.

ولهذا؛ يضفي بيكون على التفكير الميتافيزيقي بُعدًا تأمُّليًّا (Speculative)، وهو يماثل، من الناحية التأمُّلية، بين علوم الحكمة قائلًا: «نحن نقسِّم الفلسفة الطبيعية أو الجزء الفعال من الفلسفة الطبيعية، إلى ثلاثة أجزاء؛ الجزء الاختباري، والجزء الفلسفي، والجزء السحري، وهذه الأجزاء الفعالة تتماثل وتتناظر مع

1 يُلاحَظ، هنا، وتحديدًا في مقالة (**تقدُّم العلم**) في طبعتها الباكرة؛ التي صدرت في لندن عن (Henrie Tomes) في عام 1605م، أن بيكون يستخدم المصطلح الفرنسي المتداول (Metaphysique)، وهو ما لم يستخدمه، تاليًا، في كتابه (**الأورجانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة**)، وكذلك الأمر، مع استخدامه لمصطلح الفرنسي (الطبيعة Physique)، ويعني؛ بنية الجسم التكوينية، وليس مجرَّد الطبيعة، والذي سينصرف عن رسمه في كتابه اللاحق (**الأورجانون الجديد...**) في طبعته غير الأولى؛ فلم يذكره إلا مرة واحدة، ليعاود استخدام مصطلح (الطبيعة/ Physics) المعتاد، بدلًا عنه، وفي طبعة مقالته/ كتابه (**تقدُّم العلم**)؛ التي حققها ونشرها (Motagu Esq) عام 1840م، وصدرت في لندن، ظهر استخدام بيكون لمصطلح (Metaphysique) الفرنسي، ومصطلح (Physique) الفرنسي، أيضًا، في الصفحة 139 من متن الكتاب، أما الطبعات اللاحقة لهذا المقال/ الكتاب؛ فظلَّت محافظة على استخدام مصطلح (Metaphysics)، ومصطلح (physics) في اللغة الإنجليزية، كما نستخدمهما الآن.

2 Bacon (F): **The Advancement of Learning and New Atlantis**, Ed: Thomas Case, Oxford University Press, London, 1938. P 99. In addition to: (**The Advancement of Learning,** Part One, Ed; Joseph Devey, New York, Third Book, Ch. 4, P. 145).

3 إميل برهييه: **تاريخ الفلسفة.. القرن السابع عشر**، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1983م، ص ص 41 –42

4 Bacon (F): **The Advancement of Learning and New Atlantis,** Ed: Thomas Case, P. 101. In addition to: (**The Advancement of Learning,** Part One, Ed; Joseph Devey, New York, Third Book, Ch. 4, P p 145- 147).

الأجزاء التأمُّلية الثلاثة؛ التاريخ الطبيعي، والفيزيقا، والميتافيزيقا»[5]، لكن البُعد التأمُّلي، هنا، يبدو مشروطًا برؤية استقرائية، وليس مجرَّد طريقة برهانية على طريقة المنطق الأرسطوطاليسي؛ الذي كان أثره في المعرفة الميتافيزيقية الكلاسيكية واسعًا وكبيرًا، على نحو مترامي الأطراف؛ في الشرق الإسلامي الزاهر وفي الغرب الوسيطي، وفي مطلع العصور الحديثة.

ويدعم بيكون رؤيته في هذا المجال، عندما يُرجع (الحكمة) إلى مَلكات وقدرات الإنسان المعرفية؛ «فالعلم الإنساني يشتق من الملكات الثلاث؛ مَلَكة الذاكرة: وموضوعها علم التاريخ، ومَلَكة المخيِّلة: وموضوعها علم الشعر، ومَلَكة الإدراك: وموضوعها علم المعرفة أو الفلسفة»[6]، وهذا يعني؛ أن المعرفة الميتافيزيقية: هي نتاج للعقل التأمُّلي الإنسي، وبذلك يلتزم بيكون التزامًا حيويًّا، بما كانت عليه المعرفة الميتافيزيقية الموروثة عن القدماء، بمعنى؛ أن بيكون يُبحر في الماضي الفلسفي، لكنّه يعتقد أن رؤيته إلى الميتافيزيقا تختلف، فيقول: «كانت أمنيتي أن استخدم كلمة ميتافيزيقا، بمعنى مختلف عن المعنى الذي وصلنا عن الماضي، لكنني حريص على الاحتفاظ برسم المصطلح القديم؛ فأنا، وبطريقة مختلفة، متحمّس ومُحب للتراجع، قليلًا، عن القديم، أما ما يتعلَّق بالمصطلحات والاعتقادات؛ فموقفي مع الحقيقة وتقدُّم المعرفة، على نحو دائم»[7].

قسّم بيكون العلوم الفلسفيّة إلى ثلاثة موضوعات، هي: الله، والطبيعة، والإنسان أنه يذكِّرنا بتقسيم أرسطوطاليس (384-322 ق. م) نفسه للعلوم، بمعنى؛ أن بيكون حافظ على النسْق الأرسطوطاليسي، لكن الفيلسوف الفرنسي (إميل برهييه)، تنبّه إلى ذلك؛ فهذا التقسيم هو تقسيم أرسطوطاليس للفلسفة، إلى: إلهيات أو فلسفة أولى، وطبيعيات، وأخلاق، ولكن «الروح مختلف جدًا؛ فعند أرسطو كانت الفلسفة الأولى أو الميتافيزيقا، هي، في آن معًا: علم البديهيات، وعلم العلل أو مبادئ كل جوهر، وعلم الله، وجميع هذه العناصر نلقاها لدى بيكون؛ إنما في ترتيب مغاير تمامًا؛ فعلم البديهيات: أطلق عليه بيكون اسم الفلسفة الأولى، وأطلق على علم العلل: اسم الميتافيزيقا، وعلى علم الله: أطلق اسم اللاهوت»[8]، ولهذا؛ تبدو الحاجة إلى (الميتافيزيقا) في المعرفة الإنسية عامة، والمعرفة الفيزيقية خاصَّة ضرورية، حتى أن الفيلسوف العراقي، الدكتور قيس هادي أحمد، أجمل ستة أسباب لهذه الضرورة، هي:

---

5 Bacon (F): **The Advancement of Learning and New Atlantis,** Thomas Case, P. 108. In addition to: (**The A -vancement of Learning**, Part One, Ed; Joseph Devey, New York, Third Book, Ch. 4, P. 148).

يقول بيكون عن الفلسفة الطبيعية: "لا يتوقعن أحد أي تقدُّم كبير في العلوم، ما لم توصل الفلسفة بالعلوم الخاصَّة، وتُرد هذه العلوم الخاصَّة ثانية إلى الفلسفة الطبيعية" (**الأورجانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة**، ترجمة: د. عادل مصطفى، ك 1، فقرة 80، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م، ص 73. كذلك، لا ينبغي النَّظر إلى (الفلسفة الطبيعية)، على أنها مجرَّد «معبر أو جسر إلى مطلب آخر»، بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 80، ص 72. ما يعني؛ أن العلاقة بين الفلسفة والعلوم الخاصَّة، هي: علاقة عضوية متفاعلة، وبذلك، ردم بيكون التصور الأرسطوطاليسي، القاضي بترك فجوة بين (الطبيعة) وما وراءها، أو (ما بعد الطبيعة).

6 د. قيس هادي أحمد، **نظرية العلم عند فرنسيس بيكن**، مطبعة المعارف، بغداد، 1980م، ص 167، وانظر أيضًا: فرنسيس بيكون، **الأورجانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة**، ترجمة: د. عادل مصطفى، ك 2، فقرة 9، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013، ص 147

7 Bacon (F): **The Advancement of Learning,** Part One, Ed; Joseph Devey, New York, (Book Two, Ch. 4, P. 145).

8 إميل برهييه: **تاريخ الفلسفة.. القرن السابع عشر**، ص ص 41- 42

أولا: أن الفيزيقا وحدها لن تكون قادرة على أداء المَهمة العظمى للعلم، ولا بد من الاستعانة بالميتافيزيقا من أجل هذه الغاية.

ثانيًا: إن الأحكام الميتافيزيقية؛ التي تصدر كنتيجة عن التأمُّلات الميتافيزيقية بمعزل عن التجربة الواعية، ليست في شيء من الميتافيزيقا التي يريد بيكون إقامتها.

ثالثًا: إن استخدام هذا النوع من الميتافيزيقا، مفيد بالنسبة إلى مسألتين رئيستين؛ الأولى: خدمة وتدعيم كل العلوم، لاختصار الإجراءات والخطوات للتجربة، والثانية: إزالة الاعتقاد القديم بضآلة الحياة واحتقار العمل.

رابعًا: هناك ضرر بالغ يصيب الفلسفة، بسبب معالجة العلل النهائية في فيزيقا، تقتصر على البحث الفيزيقي فقط؛ فتجعل الناس يركنون إلى مظاهر وضلال العلل، بعيدًا عن البحث الشامل الجاد، فيما وراءها، بواقعية وبدقة فيزيقية.

خامسًا: حسب بيكون، نعزو البحث عمّا هو صوري إلى الميتافزيقا، والبحث عن العلل النهائية، إلّا أن السيادة، هنا، تكون للفكر؛ إذ إن الصور الضرورية أو الواقع المختلف للأشياء، يكون من غير الممكن الكشف عنه بالوسائل الإنسانية العادية.

سادسًا: عندما يُطلق بيكون اصطلاح (الميتافيزيقا)؛ فإنه يعني به: ذلك البحث الذي هو جزء لا يتجزأ من الفيزيقا، والذي لا يهتم إلّا بالطبيعة، وظيفته معرفة الصور أو قوانين الحركة، وهدف هذا البحث النِّهائي: هو الكشف عن القانون المجمل للطبيعة، الذي هو قانون فيزيقي، يحكم جميع الصور في الطبيعة، والوحدة، والانسجام فيها[9].

لقد سعى بيكون إلى تصحيح مسار الفكر الميتافيزيقي، كما سيفعل ذلك لاحقًا، إمانويل كانط في القرن الثامن عشر، عبر كتابه (نقد العقل المحض)، وكذلك مارتن هيدغر (1889م- 1976م) في القرن العشرين، عبر كتابه (الكينونة والزمان) ومؤلفات أخرى له، لكنَّ تجربة بيكون في هذا المجال؛ مجال تصحيح مسار التجربة الميتافيزيقية كتجربة فكرية، تؤكِّد أنه لمّا كان يرفض الميتافيزيقا للأسباب التي ذكرناها توًا؛ فهو لا يصادر حق وجود فراغ لا بدَّ للعقل التأمُّلي أن يسدّه، وبذلك لم يكن بيكون بقادر على تجاوز أهمية الفكر الميتافيزيقي، لكنّه أراد له أن يكون علميًا، إلّا أن الجانب العلمي كان ضئيلًا فيه؛ ذلك أن المشروع الميتافيزيقي العلمي لديه، كان مفعمًا بالتفكير الماورائي، وهو يبحث عن العلل القصوى، وعن الأشكال الصورية في الفكر الإنسي، ولهذا؛ مضى صوب إعادة النَّظر النَّقدي في بنية العقل التأمُّلي، الذي ينتج الأفكار الميتافيزيقية في كتابه (الأورجانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة).

9 انظر: د. قيس هادي أحمد: **نظرية العلم عند فرنسيس بيكن**، ص ص 177– 179

الاختلاف المنقوص:

في هذا الكتاب، انطلق بيكون من رؤية فلسفية مختلفة، كان يعتقد أنها الخيار الأفضل لإصلاح وتجديد وإحياء (Instauration) معالم الفكر الإنسي الحقيقي، الذي يتوخّى معرفة الطبيعة بدقة محايثة، وإيجاد أساس متين لقدرة الإنسان وعظمته، في الحياة والعالم، من دون اللجوء إلى بناء منظومة فلسفية شاملة، على غرار ما فعله أفلاطون وأرسطوطاليس أو غيرهم من المحدثين، رغم أنه شرع بذلك في عام 1605م، عندما وضع شجرة شاملة للعلوم، ولذلك؛ كان يقول: "قبل كل شيء، ألا يفترض أحد أنني أطمح إلى تأسيس أي مذهب فلسفي، على طريقة قُدامى اليونان أو بعض المحدثين"[10]، لكنَّه فعل ذلك إلى حدٍّ ما؛ خصوصًا، عندما وضع شجرة شمولية للعلوم؛ بل وعندما جعل من (الفلسفة الأولى) خلاصة العلوم (Summary)، والأب المشترك لها (Common parent of the sciences)، وكذلك، جعلها أمًّا للعلوم (Mother of all the Sciences)، التي تلتئم عندها كل المعارف، رغم أنه آثر جعل (الفلسفة الأولى)، معرفة متذلِّلة لكل العلوم، ناهيك عن تأكيده على وجود «جزء آخر من الفلسفة الأولى، إن هو إلّا الشرط العَرضي أو الترْسندالي (Transcendental) للأشياء، كما تمثله مجموعة من المفاهيم المجرَّدة، مثل: المختلف، والممكن، والمستحيل، والكينونة entity، ...إلخ"[(11*)].

بعيدًا عن ذلك، وفي صميم رؤية الإصلاح والإحياء والتجديد البيكونية، توسَّل هذا الفيلسوف التجريبي (سبيلين) لتشييد مشروعه الفلسفي، سبيل النَّقد الهدمي؛ وهو جزء سلبي، وسبيل النَّقد البنائي؛ وهو جزء إيجابي. في الجزء الهدمي أو جزء رفض رؤى الآخرين الفلسفية الموروثة، عمدَ بيكون إلى تفنيد أو نقض أو دحض ثلاث بؤر مولِّدة للفكر، من خلال "كشف علامات الخطأ، وتقديم بينة عن أسبابه"[12]، أما التفنيدات؛ فهي:

(أ) "تفنيد العقل الإنساني الطبيعي؛ حيث يترك على سجيته".

(ب) "تفنيد البراهين".

(ج) "تفنيد النَّظريات أو الفلسفات والمذاهب السائدة"[13].

---

10 فرنسيس بيكون: **الأورجانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة**، ك 1، فقرة 116، ص 112. سيصف بيكون فلسفة أرسطوطاليس بـ (الزائفة/ False Philosophy)، وهو الوصف الذي سينطبق على كل من؛ (الفلسفة السفسطائية)، و(الفلسفة الخرافية) أيضًا. انظر: فرنسيس بيكون: **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 62، ص 47

11* Bacon (F); **The Advancement of Learning**, Part One, Ed; Joseph Devey, New York, (Third Book, Ch. I, P. 140).

لا بد من التنويه بأن (جوزيف ديفي)، قد حرر كتاب بيكون (**تقدُّم العلم**)؛ الذي تضمَّن تسعة كتب، ولذلك؛ فهي الطبعة الأشمل من بين كل الطبعات، ونلاحظ أنه في (الكتاب الثالث، الفصل الثاني، الصفحة 140، ظهر فيه مصطلح (ترْسندالي/ Transcendental)، وفي الصفحة 141، ظهر المصطلح نفسه مرتين، ولكن بالرسم (Transcendentals)، بينما عاد بيكون واستخدمه مرة رابعة بالرسم الأول (Transcendental)، في الكتاب الخامس، الفصل الرابع، ص 238، من متن النَّص، وهو المصطلح الذي سيعتمد عليه الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانط) تاليًا، في تشييد منظومته الفلسفية، وترتبط دلالة كل هذه المصطلحات، وفقًا لرؤية بيكون بـ (الفلسفة الأولى).

12 فرنسيس بيكون: **الأورجانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة**، ك 1، فقرة 115، ص 111، حسب ترجمة الدكتور عادل مصطفى لنص بيكون (**الأورجانون الجديد...**).

13 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 115، ص 111

ويتضح، هنا، أن تفنيد أو نقض أو دحض العقل، يتطلَّب إزالة ما علق به من تفسيرات تحجب وجهه الحقيقي؛ فلمّا يتم ترك العقل على سجيته في استقبال ما هبّ ودبّ من الأفكار غير المدروسة، علميًا يبدأ بالتضخم، ويتوارى طبعه الطبيعي؛ الذي هو أكثر صدقًا من تشويهات الإنسان التي تحمله فوق طاقته حتى يفقد براءته، وهو ما كشفه بيكون في تحليله لأوهام العقل والفهم والذهن الإنسي.

كما يتضح، أيضًا: أن المقصود بالبراهين التي يفنِّدها بيكون، هو نسف النظام المنطقي، القياسي والبرهاني الأرسطوطاليسي، مقابل إحلال نظام منطقي، يقوم على الاستقراء التجريبي المحايث؛ الذي وضع بيكون أسسه في العصر الحديث، أما تفنيد النَّظريات أو الفلسفات والمذاهب السائدة؛ فيعني عزوف بيكون عن بناء نظام فلسفي شمولي، وتقاطعه مع جملة النَّظريات التي تركن إلى التأمُّلات الميتافيزيقية الشمولية، ونأيه عن الجدل الحجاجي؛ الذي يستند إلى خداع اللغة والكلمات، التي لا تجد لها معادلًا موضوعيًا في العالم الواقعي.

قد نجازف، هنا، عندما نستخدم مصطلح (منطق الاختلاف)؛ ذلك أن فكرة الاختلاف تبدو وليدة الفكر المعاصر، لكن ذلك ليس سوى افتراء على هذه الفكرة نفسها، إذا ما عرفنا أن فرنسيس بيكون، كان قد أولى عناية خاصَّة بها منذ عام 1620م، حتى وإن لم يتطرَّق إليها بصوت مسموع في كل كتاباته؛ لكون خطابه الفلسفي، في أصله، يريد أن يكرِّس التمايز الجذري عن نظام التفكير، الذي تحكَّمت به فلسفة التطابق الميتافيزيقية الكلاسيكية مع العلل الأولى، ومع النماذج الكلية والماهيات المطلقة، ومع فكرة الوجود بما هو وجود؛ ففي كتابه (الأورجانون الجديد...)، الذي صدر في ذلك العام، دعا هذا الفيلسوف إلى الأخذ بمنطق جديد، يقترحه لكي يكون مفتاحًا مغايرًا لطريقة تفكير البشر، ذلك هو (المنطق الاستقرائي)، لا سيما أنه نفسه قال جازمًا: "لا أمل لنا إلّا في الاستقراء الصحيح"[14]؛ فمنطق القياس البرهاني والاستدلالي الموروث عن أرسطوطاليس، لم يعد يجدي نفعًا في العصور الحديثة، التي صار الانفتاح على معطيات العالم الجديد فيها، لا يفي به ذلك المنطق التقليدي الذي لا يمكن له اكتشاف حقيقة تلك المعطيات.

قد يكون هذا الكلام متضمِّنًا لفكرة الاختلاف البسيطة بين منطق أرسطوطاليسي؛ الذي يعتمد القياس والبرهان، وهو منطق تطابق يرفضه بيكون، ومنطق آخر بديل يعتمد الاستقراء والمشاهدة في معاينة الطبيعة، وهو منطق اختلاف يحبذه بيكون، إلّا أن الأمر يبدو أبعد من ذلك؛ ففكرة الاختلاف تكمن في الفرق بين طريقتين لاستخلاص حقيقة الأشياء؛ إذ "هيهات لمبادئ استُخلصت بالجدل، أن تُعين أحدًا في كشف نتائج جديد؛ لأن الطبيعة أدق وأحذق من الجدل أضعافًا مضاعفة، أما المبادئ التي تُستخلص من الجزئيات بطريقة وافية قويمة؛ فإنها تشير وتومئ إلى جزيئات جديدة، وهذا ما يضفي الفاعلية على العلوم"[15].

14 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 14، ص 20

15 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 24، ص 23

يعتقد بيكون أن العلوم السائدة في عصره أمست عتيقة؛ لأنّها لا تولِّد نتائج مثمرة تضيف للمعرفة الإنسية نتائج جديدة مُستمدة من العالم الطبيعي الملموس؛ إنما مُستمدة من التفكير البرهاني والتفكير القياسي، الذي يعطي أولوية لما هو قبلي (Prior)، بوصفه معيارًا للحقيقة في عالم الذهن والفهم والعقل، وتلك هي أزمة العلوم الذي كان يعيشها عصره، ومنها (علم المنطق)؛ فمثلما "أن العلوم، في وضعها الحالي، لا تجدي نفعًا في اكتشاف نتائج جديدة، كذلك المنطق الذي بحوزتنا، لا جدوى منه في اكتشاف العلوم، ولهذا؛ يُفيد نسق المنطق الحالي في تثبيت الأخطاء القائمة على الأفكار السائدة، وترسيخها أكثر مما يفيد في البحث عن الحقيقة"[16].

يبدو المنطق الاستقرائي البيكوني مجديًا، كونه يبحث عن المختلف في عالم الأشياء والموجودات، بطريقة مأواها استقراء الطبيعة بالمشاهدة والمعاينة، إلّا أن صاحبنا هذا يسقط في فخ المطابقة مرَّة أخرى، وهو يقرأ صفحة الطبيعة تلك، وذلك عندما يعتبر الطبيعة أدق وأصدق من مجرَّد إدراك الإنسان لها، على نحو غير جاد، يقول بيكون: «إن الطبيعة تفوق دقة الحواس والفكر أضعافًا؛ بحيث إن جميع تلك التأمُّلات والشروح المنمَّقة التي ينغمس فيها الناس؛ هي محض جنون، كل ما في الأمر أنه لا أحد هناك يلاحظها»[17]. ويقول، أيضًا، وهو يدعم فكرته هذه: «لا ينطبق القياس على مبادئ العلوم، ولا جدوى من تطبيقه في المبادئ الوسطى؛ إذ إن القياس لا يجاري الطبيعة في دقتها؛ فهو يفرض الموافقة على القضية، دون أن يمسك بالأشياء»[18]، ما يعني؛ أنه منطق يستند إلى ما هو قبلي، يسوِّغ لأطلاق الأحكام من دون الرجوع إلى التجربة.

يبدو هذا الكلام رائعًا، ولكن تبقى (الطبيعة) أكثر دقة، بأضعاف، من الحواس والفكر الإنسي، وتلك فكرة مفعمة بالقبلية، وكل ما هو قبلي، يتضمَّن نزوعًا ميتافيزيقيًا؛ فأن تكون الطبيعة دقيقة إلى حد أنّها تفوق إدراك الحواس البشرية، وتتفوَّق على الإدراك الفكري والعقلي؛ فإنها، بذلك، تمتلك صدقها القبلي الذي لا يلاحظه أحد من الناس، وهذا إيغال في قبلية فكرة الطبيعة، بمعنى؛ أن الطبيعة إن هي إلا فكرة قبلية، وأن الحواس والفكر يشتغلان كي يرتقيان إلى مصاف صدق الطبيعة، وإلى التطابق مع صدق الطبيعة، وذلك هو الاختلاف المنقوص في مشروع بيكون الفلسفي؛ الذي سقط في فخ التطابق، رغم تماديه في معاينة ما هو محايث في العالم الواقعي.

16 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 11/ 12، ص 19

17 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 10، ص 19

18 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 13، ص 20

أزمة العقل الإنسي:

إن السقوط في فخ فكرة التطابق، لم يمنع بيكون من مواصلة البحث عن مشكلات العقل الإنسي، وهو يواجه أزمة باتت تضرُّ به في العصور الحديثة، وموئل تلك الأزمة؛ إنما تمثله الأوهام القابعة فيه، والتي تتحكَّم بعمله، وطُرق اشتغاله؛ فمثلما يبدو الإنسان مقصِّرًا في فهمه للطبيعة، وعزوفه عن استقراء قوامها الذي لها، كذلك، يبدو الإنسان مقصرًا في تقديم الدعائم الحقيقية للعقل، كي ينهض بمسؤولياته المعرفية. يقول بيكون: "إن سبب كل خللٍ، تقريبًا، وأصله في العلوم، هو هذا وحده: إننا، وفي غمرة إعجابنا الخاطئ، وإطرائنا لقوى العقل الإنسي، لا نبحث عن دعائم حقيقية له"[19]، وهذا يعني؛ أن الإنسان يترك العقل يتجوَّل في دروب غير آمنة، خصوصًا، أن هذا العقل «مغرم بالقفز إلى العموميات»[20]، وتلك إشكالية كبيرة تواجه الإنسان في علاقته بعقله، ودور هذا الأخير في العالم؛ فما يتضمَّنه العقل الإنسي جملة من الآراء الفارغة، هكذا يرى بيكون وهو يقارن بين العقل الإنسي والعقل الإلهي: «إن البون لبعيد بين أوهام العقل الإنسي وأفكار العقل الإلهي؛ أي بين ما هو مجرَّد آراء فارغة، وما هو السمة أو البصمة الحقيقية المطبوعة على المخلوقات كما نجدها في الطبيعة»[21].

تبدو هذه التفرقة ضرورية، من حيث فداحة الحال الذي عليه العقل الإنسي؛ فهذا العقل تثوي فيه، وعلى نحو متراكم، «أغلاط متجذرة في جبلته الأولى (First Moves) لا سبيل إلى الشفاء منها، بأية جهود أو علاجات لاحقة، مهما بلغت عبقريتها"[22]، وربما، هنا، تولد لدينا فكرة (العقل في ذاته)، أو (العقل المحض) الذي تثوي فيه قبليات غير مجربة يحفل بها العقل الإنسي، إلّا أن ما يريد بيكون التأكيد عليه، هنا، هو عدم اعتبار هذا (العقل الإنسي) متضمنًا لأية قيم محضة (Pure) من طبيعته نفسها، حتى يمكن أن يقال عنه: إنه (عقل في ذاته)، كما سيفعل إيمانويل كانط لاحقًا في كتابه (نقد العقل المحض)؛ فبيكون، ورغم حدّة هذا الحكم الصريحة، ما زال يحتفظ بـ(بعدية A priori) هذا العقل، كونه عقلًا بشريّ التكوين، وليس عقلًا إلهيًا خالصًا في تمامه وكيانه وفاعليته، وكونه، أيضًا، ذلك العقل الإنسي الذي يشتغل وفقاً لبيكون بـ(استباقات)، أو (توقُّعات) (Anticipations)، بوصفها مصدرًا لتوليد الوهم، ولذلك؛ قال: "آثرتُ، من باب الإيضاح، أنْ أطلق على الاستدلال الذي يطبقّه الناس عادة على الطبيعة، اسم استباق الطبيعة؛ لأنه عمل طائش ومبتسر، وأنْ أطلق على ما هو مُستنبط من الأشياء، على نحو منهجي، اسم: تفسير الطبيعة"[23]، ما يعني أنّنا،

19 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 9، ص 19

20 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 20، ص 22

21 فرنسيس بيكون: **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 23، ص 23. أوضح الفيلسوف المصري الدكتور: زكي نجيب محمود بان بيكون «يستعمل كلمة (Idol)، بمعنى؛ الصورة التي ترتسم في الذهن عن الحقيقة، دون الحقيقة نفسها؛ أي الفكرة التي تؤخذ خطأ، على أنها شيء، وهي ليست بشيء في الواقع الخارجي، وهذه الأفكار؛ هي مصدر الأخطاء كلها، وأول واجب على المنطق أن يتعقبها واحدة فواحدة، ويمحوها محوًا، ويجتثها من أصولها». انظر: د. زكي نجيب محمود، **قصّة الفلسفة الحديثة**، ج 1، هامش 1، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936، ص 62

22 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 30، ص 25

23 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 26، ص 24

وبواسطة تفسير الطبيعة (Interpreting Nature)؛ يمكن أن نتجاوز استباق الطبيعة (Anticipating Nature)، باستخدامنا "الاستقراء الصحيح؛ الذي هو العلاج الناجع للتخلُّص من الأوهام وازالتها»[24]، وكل ذلك متأت من رؤية بيكون الفلسفية، التي تهدف إلى جعل «المسلك إلى الحقيقية أقل عثارًا، والفهم الإنسي أكثر نزوعًا إلى التطهُّر ونبذ الأوهام»[25]، ولكن ما هي (أوهام العقل الإنسي) تلك التي من خلاها توجَّه بيكون إلى نقد التأمُّلات الميتافيزيقيّة؟

أوهام العقل:

لقد افترض بيكون وجود خلل كبير يعاني منه العقل الإنسي؛ بل الكائن الإنسي حتى، فأخذ على عاتقه مَهمة «تنظيف مرآة المعرفة من كل الأوهام المتجذرة في الإنسان»[26]، ووفق رؤية كهذه، لا تهدر كرامة الفلاسفة والمفكِّرين، القدماء والمحدثين، وتقلِّل من قدرهم ومنزلتهم[27]، ركَّز بيكون نظره النَّقدي في تشريح (Dissecting) بنية العقل الإنسي، تلك البنية المبتلات بأوهام وترائيات وقناعات مولِّدة للخداع والمظاهر الزائفة، تراها قابعة في الذهن الإنسي (Intellect Human)، ومتحكِّمة بعمله على نحو متواصل؛ فأخذ بيكون يشير إلى أربعة أوهام مركزية، تخلط العلم بالسحر، والشعوذة، والأفكار الميتافيزيقية في بوتقة واحدة، وهذه الأوهام هي:

أولا: أوهام الجنس الإنسي أو القبيلة (Idols Tribe)؛ وهي أوهام الجنس الإنسي في كل زمان ومكان، وبمختلف مستويات البشر المعرفية؛ عامَّتهم وخاصتهم، ومنهم الفلاسفة، ويرجعها بيكون إلى مصادر عدَّة؛ فهي "تنشأ إما عن اطراد/ انتظام جبلة الروح الإنسي، أو عن تحيزاتها، أو قصور مَلكاتها، أو حركتها الدائبة، أو عن تأثيرات الانفعالات، أو عن عجز الحواس، أو عن شكل انطباعاتها"[28]، ويمكن لنا أن نلخصها، وبالاستناد إلى نصوص بيكون نفسه، في تسعة مسائل فرعية، هي:

(1) «من طبيعة الفهم الإنسي (Human Intellect) الخاصَّة، أنه يميل إلى أن يفترض في العالم نظامًا واطرادًا، أكثر مما يجده فيه، ورغم وجود أشياء كثيرة في الطبيعة فريدة من نوعها وعديمة النظير؛ فإن الذهن الإنسي يخترع لها أشباهًا ونظائر وصلات لا وجود لها".

(2) "من دأب الفهم الإنسي، وعندما يتبنّى رأيًا؛ فإنه يقسر كل شيء عداه، على أن يؤيده ويتفق معه".

24 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 40، ص 29

25 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 61، ص 46

26 جاكلين روس، **مغامرة الفكر الأوروبي**، ترجمة: أمل ديبو، ص 149، كلمة، أبوظبي، 2011

27 انظر: فرنسيس بيكون، **الأورجانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة**، ك 1، فقرة 61، ص 45

28 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 52، ص 38

(3) ”إن أكثر ما يشغف الفهم الإنسي به؛ هو تلك الأشياء التي تلفت العقل، وتنفذ إليه فورًا وفجأة؛ فتجعل المخيَّلة تمتلئ للتو وتتمدَّد“.

(4) ”إن الفهم الإنسي في نشاط دائب، لا يمكنه أن يتوقَّف أو يستكين، وما يزال يبتغي المضي قُدمًا، وإن كان ذلك بغير جدوى“.

(5) ”الفهم الإنسي في عجزه عن التوقُّف، ما يزال يتلمس شيئًا ما، سابقًا في نظام الطبيعة، ثم هو في غمرة جهاده في المضي إلى أبعد، إذا به يرتدُّ إلى ما هو أقرب مأخذًا، أعني؛ إلى العلل الغائيّة التي تمتُّ بالصّلة إلى طبيعة الإنسان، أكثر ممّا تمتُّ إلى طبيعة العالم، وهي، جراء هذا المنشأ، أفسدت الفلسفة على نحو عجيب“.

(6) ”إن الفيلسوف الذي يلتمس العلل في العموميات القصوى، ليس أقل خرقًا من ذلك الذي يتوانى عن التماسها في الأشياء التابعة والفرعية“.

(7) ”الفهم الإنساني ليس مجبولًا من ضياء صرف (ليس موضوعيًا ولا منزهًا)؛ إنما هو مُشرَّب بالإرادة والعواطف. إن العاطفة تدمغ العقل وتصبغه بطرائق لا حصر لها، وطرائق خفية تند عن الإدراك في بعض الأحيان“.

(8) ”أكبر عائق للفهم الإنسي على الإطلاق، وأكبر زيغ؛ إنما يأتي من بلادة الحواس وقصورها وخداعها؛ فالأشياء التي تمس الحواس، لها الأرجحية على الأشياء التي لا تمسها مباشرة، مهما علا شأنها“.

(9) ”الفهم الإنسي يميل بطبيعته الخاصَّة إلى التجريد، ويفترض وجود جوهر ثابت، وواقعًا فيما هو عابر ومتغير، غير أنه أفضل لنا أن نُشرِّح الطبيعة إلى أجزاء، من أن نجرِّدها.

إن المادة، لا الصور، ما ينبغي الالتفات إليه؛ المادّة وبنيتها (Microstructures)، وتغيرات هذه البنية، والفعل المحض (Actus Purus)، وقانون هذا الفعل، أما الصور (Forms)؛ فما هي إلّا وهم العقل الإنسي، إلّا إذا أطلقنا اسم الصور على قوانين الفعل“[29].

29 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، حسب تسلسل المقتبسات التسعة: ك 1، فقرة 45، ص 31، ك 1، فقرة 46، ص 32، ك 1، فقرة 4740، ص 34، ك 1، فقرة 48، ص 34، ك 1، فقرة 48، ص 35، ك 1، فقرة 48، ص 34، ك 1، فقرة 49، ص ص 36- 37، ك 1، فقرة 50، ص 36، ك 1، فقرة 51، ص ص 37- 38.

ما يخص المقتبس التاسع ك 1، فقرة 51، ص ص 37- 38. الخاص بدلالة (الصور) لدى بيكون، يقول الدكتور زكي نجيب محمود: «نرى بيكون غامضًا في تحديد ما يقصده، تمامًا، من كلمة **الصورة**؛ فهو يقول تعريفًا لها: صورة الظاهرة: هي التي إذا أضيفت إليها أكسبتها ماهيتها، وإذا ما انتزعت منها تلاشت طبيعتها، ولكن الصورة لا تزال، مع هذا التعريف، مبهمة وغامضة، لا نفهم مدلولها فهمًا دقيقًا؛ فهي، وبالبداهة، لا تعني شكل الشيء الخارجي الذي يُدرك بإحدى الحواس، وهي ليست المثال الأفلاطوني للشيء؛ لأن هذا منفصل عن الشيء وخارج عنه، أما صورة **الشيء** عند بيكون؛ فهي فيه وتتصل به أوثق اتصال، ونستطيع أن نوضّحها للقارئ، على وجه التقريب، بأنها: القانون الذي تسير على مقتضاه الظاهرة المعينة؛ فصورة الحرارة، مثلًا، هي قانونها، وهكذا..». انظر: د. زكي نجيب محمود، **قصَّة الفلسفة الحديثة**، ج 1، ص 62

ثانيًا: أوهام المغارة أو الكهف (Idols Cave)، وهي أوهام الإنسان (الفرد)؛ التي تنشأ، كما يقول بيكون: من "الطبيعة الخاصّة لعقل كل فرد وجسمه، وعن ثقافته وعاداته وظروفه"[30]، كما أنها، في معظمها، تنشأ، أيضًا، من "غلوٍّ في التركيب، أو شطط في التقسيم، وكذلك، من التحيز لعصور تاريخية بعينها، ومن كبر موضوعات الملاحظة أو صغرها"[31]، ويُضمِّن بيكون هذه الأوهام مجموعة من المسائل، لعل أهمها؛ وقوع الناس "في غرام حقول معينة من المعرفة والأفكار؛ إما لأنّهم يظنون أنفسهم مؤلِّفيها ومبتكريها، وإما؛ لأنهم أنفقوا فيها جهدًا كبيرًا، وصاروا على إلف (Habituate) كبير بها؛ وإذا عمد هؤلاء الناس إلى الفلسفة والتأمُّلات ذات الصبغة الكلية؛ فإنهم يلوون بها ويفسدونها، كي تلائم خيالاتهم المسبقة، ولدينا من أرسطوطاليس نموذج واضح لهؤلاء؛ إذ أخضع علمه الطبيعي تمامًا لمنطقه؛ فجعل منه شيئًا خلافيًا، ولا خير فيه"[32].

ثالثًا: أوهام السوق أو الساحة العامة (Idols Place)، وهي، في منظور بيكون: «من أكثر الأوهام إزعاجًا، تلك الأوهام التي انسربت إلى الذهن (Intellectual) من خلال تداعيات الألفاظ والأسماء؛ ذلك أن الناس يظنون أن عقلهم يتحكَّم في الألفاظ، بينما الحقيقة؛ أن الألفاظ تعود وتشن هجومًا مضادًا على الفهم، وهذا ما جعل الفلسفة والعلوم مغالِطة وعقيمة»[33]، وهناك نوعان من الأوهام تفرضها اللغة على الفهم (Intellect)، هي:

(1) "أسماء لأشياء لا وجود لها؛ لأنّها وليدة افتراضات خيالية، لا تناظرها أشياء في الواقع، مثل: مصير، والمحرك الأول، والأفلاك الكوكبية، وعنصر النار، وغيرها من الخيالات التي تعود، في نشأتها، إلى النَّظريات الزائفة العقيمة، وهذا الصنف من الأوهام يسهل التخلُّص منه؛ إذ من الممكن استئصاله بواسطة التنفيذ المستمر، أو التخلي عن النَّظريات نفسها".

(2) "أسماء لأشياء، ولكنّها مختلطة وغير محدَّدة؛ لأنّها انتزعت من الأشياء على عجل ودون تدقيق"، وهذا الصنف من الأوهام الناتج عن مشكلة اللغة، "معقَّد ومتجذِّر؛ لأنه ناتج من تجريد مغلوط وأخرق، وأقل فئات الألفاظ خطأً: أسماء المواد، خصوصًا، النَّوع الأقل تجريدًا، وأكثر تحديدًا، تليها الأفعال، أما أكثر الفئات خطأً؛ فأسماء الكيفيات"[34].

30 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 53، ص 38

31 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 58، ص 41

32 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 54، ص 39

33 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 59، ص 42

34 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 60، ص ص 43- 44، ك 1، فقرة 60، ص 43، (ك 1، فقرة 60، ص ص 44- 45

رابعًا: أوهام المسرح أو الساحة الأدبية (Idols Theater)، وهي، بحسب بيكون: "ليست فطرية، ولا تسترق إلى الذهن سرًّا؛ إنما يتمُّ إدخالها علنًا، وتقبلها عن طريق النَّظريات الخرافية والقواعد المغلوطة للبرهان"[35].

نقد العقل الميتافيزيقي:

لقد جاء نقد بيكون للمعرفة الميتافيزيقية على هامش تأسيسه للمنطق الاستقرائي، وكذلك، على هامش نقده لأوهام العقل الإنسي، وهنا، لا بدَّ من التنويه بأن نقد بيكون للميتافيزيقا، لا يمثل هامشًا منزويًا في فلسفته، وإن لم يخصِّص له كتابًا منفردًا؛ إنما يمثل عصبًا حيويًّا بارزًا فيها، بوصف هذه المعرفة غصنًا من أغصان شجرة العلوم التي ابتناها في عام 1605م، لكن البناء الفلسفي للتفكير الميتافيزيقي، لا بدَّ أن يزيل مجموعة من الحجب التي تعطِّل انبلاج حقيقة المعرفة الميتافيزيقية، وضرورتها في مسارات التفكير الإنسي، ومن ذلك؛ كشف أوهام الذهن الإنسي والعقل الإنسي، كما أقبل بيكون نفسه على تعريتها، وهي؛ التعرية التي أوضحت جانبًا من أخطاء التفكير الميتافيزيقي القديم، خصوصًا، في أنموذج الأرسطوطاليسي، ومنْ سار بركبه من الفلاسفة قبل بيكون.

يعتقد بيكون أن السجال الذي وقعت في حبائله بعض الفلسفات، كان سببًا حقيقيًّا في انحراف التفكير الإنسي، ومن ذلك؛ اختلاف العقل الإنسي حول «المبادئ الأولى، والأفكار في ذاتها؛ بل وحتى صور البرهان»[36].

إن هذه المفاهيم الميتافيزيقية المحضة، هي التي شغلت التفكير الميتافيزيقي طويلًا، والتي لم تعد مجدية، خصوصًا، أن «الفهم الإنسي، في عجزه عن التوقُّف، ما يزال يلتمس شيئًا ما سابقًا في نظام الطبيعة»[37]، وهذا بعينه سلوك التفكير الميتافيزيقي الإنسي الذي لم يعد نافعًا؛ حيث صار «الفيلسوف الذي يلتمس العلل في العموميات القصوى، ليس أقل خرقًا من ذلك الذي يتوانى عن التماسها في الأشياء التابعة والفرعية»[38].

إن فيلسوفاً ميتافيزيقي التوجُّه من هذا النوع، لا يحبذه بيكون، لا سيما أنه يتعامل مع (الصور) (Forms)، بمعناها المفارق، والصور، في منظور فيلسوف (الأورجانون الجديد)، ليست سوى: "وهم من أوهام العقل الإنسي، إلّا إذا أطلقنا اسم الصور على قوانين الفعل"[39]، بمعنى؛ أن بيكون ينظر إلى نظرية المُثل الأفلاطونية، وهي نظرية ميتافيزيقية كلاسيكية محضة، نظرة سلبية كونها أحد أوهام العقل الإنسي، وسيعود إليها لاحقًا، في معرض نسفه للفكر الخرافي؛ "فالفساد الذي يأتي الفلسفة من الامتزاج بالخرافة

35 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 61، ص 45
36 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 35، ص 27
37 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 48، ص 35
38 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 51، ص 38
39 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 51، ص 38

والثيولوجيا، هو أوسع انتشارًا، وأشد ضررًا عليها؛ سواء على منظوماتها الكلية، أو على أجزائها، وهناك مثال لافت عن هذا في أفلاطون ومدرسته؛ حيث الخرافة أخطر وأرقى، وهذا الإثم نجده، أيضًا، في جوانب من الفلسفات الأخرى، متمثلًا في القول بالصور المجرَّدة، والعلل الغائيّة الأولى، مع إغفال كثير للعلل الوسطى وما إليها"[40].

إن بيكون، الذي نسف نظرية الصور الأفلاطونية عبْرَ نسفه للتصورات العامة، والتجارب الذهنية القائمة على الخرافة، نراه يتوجَّه بالنَّقد إلى جوهر فلسفة أرسطوطاليس؛ فيقول عنه، بوصفه فيلسوفًا ميتافيزيقيًا: "يقعُ الناس في غرام حقول معينة من المعرفة والأفكار؛ إما لأنّهم يظنون أنفسهم مؤلِّفيها ومبتكريها، وإما لأنّهم أنفقوا فيها جهدًا كبيرًا، وصاروا على إلف كبير بها، وإذا عمد هؤلاء الناس إلى الفلسفة والتأمُّلات ذات الصبغة الكلية؛ فإنهم يلوون بها ويفسدونها، لكي تلائم خيالاتهم المسبقة، ولدينا من أرسطوطاليس نموذج واضح لهؤلاء؛ إذ أخضع علمه الطبيعي، تمامًا، لمنطقه؛ فجعل منه شيئًا خلافيًا، ولا خير فيه"[41].

يتمتَّع العقل الميتافيزيقي بقدرته إلى توظيف التوقُّع أو الاستباق (Anticipation)، كوسيلة لمعرفة الأشياء، على حساب التفسيرات العلمية الحقيقية لهذه الأشياء، حتى إن هذه الاستباقات أو التوقعات، تتميز "بقوة ورسوخ يكفي لانتزاع الإجماع"[42]، ولذلك؛ يعتقد بيكون بأنه "يحق للعلوم القائمة على الآراء والاعتقادات، أن تستخدم الاستباقات والجدل؛ ذلك أن غايتها أن تفرض القبول بالقضية، لا السيطرة على الأشياء"[43]، وهنا، وجه الفرق بين التفكير العلمي والتفكير الميتافيزيقي.

لاحظ بيكون استخدام الفلاسفة الميتافيزيقيين المفارق للغة؛ التي تصف بضعة أشياء لا وجود لها في العالم الطبيعي المنظور؛ فتظهر جُملة من التسميات عبر الكلمات لمسميات لا وجود لها، ومن ذلك مفهوم (القدر Fortune)، ومفهوم (المحرِّك الأول Prime Mover)، ومفهوم (العلل القصوى للطبيعة Ultimate Parts of Nature)؛ فجميع هذه المفاهيم المفارقة، تصف معان مجرَّدة من حيث الوجود، شغلت تاريخ الفلسفة الميتافيزيقية لقرون عديدة.

إن شيوع وانتشار هكذا مفردات، تدخل في قاموس الفكر الميتافيزيقي، غالبًا ما تظهر في المسرح الفلسفي؛ الذي يمثل البيئة الحاضنة لولادة هكذا مفردات، والمسرح الفلسفي (Philosophical Stage): هو مسرح النُّخبة من المفكِّرين والفلاسفة؛ بل قل: هو سوقهم المعرفي، الذي يتداولون من خلاله أفكارهم، ورؤاهم، ونظرياتهم، ومفاهيمهم، وهو السوق نفسه الذي تظهر فيه مفردات مثل: المحرِّك الأول، والمحرك

40 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 65، ص ص 50- 51. وانظر أيضًا: ك 1، فقرة 67، ص 56

41 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 54، ص 39

42 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 27، ص 24

43 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 29، ص 25

الذي لا يتحرَّك، والقدر، والجوهر والماهية، وغير ذلك من المفاهيم ذات الدلالة الميتافيزيقية، على أن استخدام بيكون لملفوظ (المسرح الفلسفي)، يأتي بدلالة منزاحة عن الدلالة المعجمية لهذا المصطلح؛ فليس المقصود: هو المسرح بدلالته المعروفة راهنًا؛ إنما الفضاء التداولي لتبادل الأفكار، ولكن الفضاء المخصوص وليس العام.

يأخذ بيكون على عدد من الفلاسفة، ومنهم أرسطوطاليس، خلط الحقول المعرفية فيما بينها، بوازع من النَّزعة الكلية في التفكير التي هي عماد الفكر الميتافيزيقي؛ الذي يهتم بصياغة الأفكار أكثر من اهتمامه بالدخول إلى حقيقة الأشياء؛ فأرسطوطاليس «الذي أفسد الفلسفة الطبيعية بمنطقه، وشيد العالَم بمقولاته، ونسب إلى الروح الإنسي جنسًا يقوم على كلمات، وحول التفاعل بين الكثيف والمخلخل، إلى تلك التفرقة البادرة بين القوة والفعل، وأكَّد أن لكل جسم حركة فريدة خاصَّة به؛ فإذا شارك في حركة أخرى؛ فإن هذه الحركة تعود إلى علّة خارجية، وفرض على الطبيعة أشياء أخرى لا حصر لها، وفقًا لهواه، وقد كانت تعنيه، دائمًا، التعريفات والدقة في صياغة قضاياه، أكثر مما تعنيه الحقيقة الداخلية للأشياء، ولهذا؛ لا تكاد تسمع في فيزيقا أرسطوطاليس أي شيء عدا مصطلحات المنطق، والتي أعاد تدويرها، مرَّة أخرى، في ميتافيزيقاه، تحت تسمية أكثر جلالًا، زاعمًا أنه اسمي أكثر منه واقعي»[44].

على أن هذا النَّقد للممارسة الفلسفية الأرسطوطاليسية، يبدو أنه طال ما هو أكثر من ذلك؛ إذ طال طريقة أرسطوطاليس، وهو يؤسس «أحكامًا في كل شيء، ثم يأخذ، هو نفسه، بطرح اعتراضات من عنده، كي لا يستطيع أن يتصدّى لها، بحيث لا يترك أمرًا إلا وهو يقيني محسوم»[45].

إن ما تتسم به سليقة التفكير الميتافيزيقي دائمًا، هو أنها «تخضع الأفكار للألفاظ»[46]، وبذلك، تولد مفهومات ومصطلحات كثيرة قائمة على أساس ذلك الإخضاع القسري؛ الذي يدفع العقل الميتافيزيقي إلى «التطواف حول الأشياء، دون المثابرة على البحث الجاد فيها»[47]، حتى يُمسي العقل الميتافيزيقي، «مغرمًا بالقفز إلى العموميات، لكي يتجنَّب العناء، ولذا؛ فإنه سرعان ما يضيق ذرعًا بالتجربة»[48].

44 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 63، ص ص ص 47– 48- 49

45 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 67، ص 56

46 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 69، ص 58

47 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 67، ص 57

48 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 320، ص 22

الميتافيزيقا البديلة:

رغم هذا النّقد الذي وجّهه بيكون إلى المعرفة الميتافيزيقية؛ فإنه، وفي كتابه (الأورجانون الجديد..)، عاد، مرة أخرى، إلى تأكيد ضرورة هذه المعرفة في (شجرة العلوم) التي رسمها في كتابه الباكر (تقدُّم العلم)؛ فالميتافيزيقا، وكما ورد تعريفها في (الأورجانون الجديد..)، هي: «دراسة الصور التي هي أزلية ثابتة»[49]، ولغرض تحقيق دراسة هذه الصور الأزلية الثابتة، يقترح بيكون منهجًا يقوم على خطوتين: تتعلّق الأولى: بكيفية استخلاص المبادئ (Axioms) من الخبرة (Experiments)، وتتعلّق الثانية: باستنباط تجارب جديدة (New Experiments) من المبادئ (Axioms)[50].

وهنا، يريد بيكون أن يضع التفكير الميتافيزيقي على مسطرة الدروب العلمية الآمنة، بمعنى؛ أنه يريد أن يخضع هذا التفكير إلى منطق الاستقراء، بعد أن كان خاضعًا، ولقرون عديدة، إلى منطق البرهان والاستدلال الأرسطوطاليسي، ولأجل ذلك؛ يقترح بيكون، وبحسب الخطوة الأولى، اللجوء إلى الحواس، والذاكرة، والذهن أو العقل، ولكن بكيفية فلسفية تعطي الأولوية إلى تفسير الطبيعة، وليس إلى تجريدها بمبادئ مفارقة، ومن هنا؛ يقترح بيكون مجموعة مَهام لكل من؛ الحواس، والذاكرة، والذهن أو العقل، وفقًا لما هو آت:

أولا: مَهمة الحواس: "أن نعدَّ تاريخًا طبيعيًا وتجريبيًا وافيًا ودقيقًا؛ فهذا هو أساس المشروع كله؛ إذ علينا ألا نخترع أو نتخيَّل ما تقوم به الطبيعة؛ بل أن نكتشفه".

ثانيًا: مَهمة الذاكرة: "إن التاريخ الطبيعي والتجريبي: هو من التنوع والتشتت بحيث يُربك العقل ويشتته، ما لم يتم تنسيقه وعرضه بتنظيم ملائم، لذا؛ فإن علينا أن نكوِّن قوائم وترتيبات للشواهد، بطريقة ونظام يمكِّن العقل من التعامل معها".

ثالثًا: مَهمة الذهن أو العقل: "وحتى بعد أن نقوم بذلك؛ فإن الذهن حين يُترك لحاله وطرائقه؛ فهو غير قادر وغير لائق لتكوين المبادئ، ما لم يتم توجيهه ودعمه، لذا؛ علينا، في المقام الثالث، أن نستخدم استقراء صحيحًا ومشروعًا، يكون هو المفتاح نفسه للتفسير"[51].

ما هو مهم للوصول إلى دراسة الصور (Investigation forms)، التي يضطلع بها التفكير الميتافيزيقي: هو تفسير الطبيعة (Interpretation)، وليس تجريدها (Abstraction) بمبادئ قبلية مفارقة، على طريقة أفلاطون (427– 347 ق. م) القديمة في نظرية المثل، بقصد مطابقة الأشياء المادية مع تلك النماذج المفارقة

49 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 2، فقرة 9، ص 146

50 انظر: فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 2، فقرة 10، ص ص 146 -147

51 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 2، فقرة 10، ص 147

ومنها الصور المثالية؛ فالطبيعة، وبحسب بيكون، يتم معاينتها ومشاهدتها من دون تخيلها أو توقعها على نحو تجريدي، كذلك، لا بد ألّا نستعين بفوضى ما، يمكن أن تزوّدنا بها الذاكرة الإنسية المشوشة مما استقر فيها من ذكريات، ومن ثم؛ توجيه الذهن الإنسي عن طريق ضبط حركته، وهو يفكِّر في الظواهر الطبيعية المُعاينة أو المشاهدة، وكل ذلك، يعني؛ تضافر جهود هذه المَلَكات الثلاث في مسار واحد، لا يترك مجالاً لاندساس أي معطى، لا يستند إلى تجربة مُختبَرة تجريبيًا، وهو ما سيتلقَّفه الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط لاحقًا، عندما سيعسى إلى نقد المعرفة الميتافيزيقية المفارقة غير القائمة على التجربة.

يحذرنا بيكون من أنْ تُترك المعرفة الإنسية، ومنها؛ المعرفة الميتافيزيقية، «نهبًا لغيوم التقاليد، ودوامة الجدل، ولتقلبات الصدفة ومتاهاتها، وللخبرة العارضة غير المنظَّمة»[52]؛ فلا بدّ لها من «فتح طريق مُعبِّد للفهم الإنساني وممهد، كي ينطلق من الحواس عبر التجربة المنظَّمة المحكمة»[53]، تلك التجربة الإنسية التي غيبتها العلوم الموروثة، وإذا «كانت العلوم قد تعثَّرت عن إكمال الطريق؛ فإنها ضلَّت سبيلها حين تركت التجربة وهجرتها تمامًا، أو أوقعت نفسها في شرك متاهاتها، وجعلت تتخبَّط في حلقات مفرغة، في حين أن المنهج القويم يتخذ جادة آمنة، تتخلل غابة الخبرة التي تفضي إلى رحابة المبادئ»[54]، وهذا، بالضبط، ما أقبل عليه بيكون وهو يعيد بناء منظومة العلوم والمعارف، ومنها؛ المعرفة الميتافيزيقية التي تاهت في دروب غير آمنة، حتى سقطت في غموض؛ بل عماء قاسي الشأن، ما يستدعي إنقاذها من ذلك الظلام الدامس.

***

بهذا، نلاحظ أن فرنسيس بيكون لم يأت إلى نسف الميتافيزيقا نسفًا جذريًا، حدَّ الإلغاء المطلق، ولم يستبعدها كليًا؛ بل فصل بين (العلم الطبيعي) و(الميتافيزيقا)، من خلال نقد التأمُّل الميتافيزيقي، بوصفه بنية معرفية مفارقة، ومن ثم؛ اقترح (ميتافيزيقا علمية)، وهي: ميتافيزيقا بديلة قائمة على أسس جديدة محايثة، ولذلك؛ يقول الفيلسوف المصري محمود رجب: «إن الميتافيزيقا العلمية، عند بيكون، وبوصفها قسمًا خاصًّا من أقسام الفلسفة الطبيعية، تهتمُّ بالطبيعة، ولا شيء غير الطبيعة، ولكنّها تهتمُّ بأسمى أجزاء الطبيعة؛ فهي تُعنى بما هو أكثر تجريدًا وثباتًا، وبينما تفترض الفيزيقا في الطبيعة، الوجود، والحركة، والضرورة الطبيعية، نجد أن الميتافيزيقا تفترض، إلى جانب ذلك، الذهن والفكر، وبما أن الجزء الخاص من الفلسفة الطبيعية، يُسميه بيكون: الفيزيقا الخاصَّة؛ فإننا نستطيع أن نستدل، بسهولة، أن الميتافيزيقا الجديدة أو العلمية ترادف الفيزيقا العامة»[55].

---

52 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 82، ص 75

53 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 82، ص ص 74- 75

54 فرنسيس بيكون، **المصدر السابق نفسه**، ك 1، فقرة 82، ص 76

55 محمود رجب: **الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1970م، ص 241

بهذا، أيضًا، يكون فرنسيس بيكون قد أحدث قطيعة معرفية في تاريخ الفلسفة الميتافيزيقية، عندما وضع الميتافيزيقا على مشرحة التفكيك، والنَّقد، وإعادة البناء وفق رؤية فلسفية جديدة، تسعى إلى خلخلة الارتباط بالفكر الميتافيزيقي؛ الذي يجعل من المفارق والمتعالي منطلقًا له، وإعادة توحيد قدرات الإنسان المعرفية بالميتافيزيقا، وفق رؤية علمية أكثر ارتباطًا بعالم الأشياء، من خلال اكتشاف حقيقة الأشياء، وليس فقط تجريدها من واقعها المحايث لغرض بناءها على نحو مفارق أو متعال.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر والمراجع باللغة العربية:

- أحمد د. قيس هادي، **نظرية العلم عند فرنسيس بيكن**، مطبعة المعارف، بغداد، 1980م.

- برهييه إميل، **تاريخ الفلسفة.. القرن السابع عشر**، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، 1983م.

- بيكون فرنسيس، **الأورجانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة**، ترجمة: د. عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

- محمود د. زكي نجيب، **قصَّة الفلسفة الحديثة**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936م.

- رجب محمود، **الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1970م.

- روس، جاكلين، **مغامرة الفكر الأوروبي**، ترجمة: أمل ديبو، مشروع كلمة، أبوظبي، 2011م.

ثانياً: المصادر باللغة الإنجليزية:

- Bacon (F): **The Advancement of Learning and New Atlantis**, Ed: Thomas Case, Oxford University Press, London, 1938.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2017

جميع الحقوق محفوظة © 2017